

تاريخية الرؤية المعاصرة

فى

إضاءة التراث النقدي



د. حسن البندارى *

(١)

عمد بعض الباحثين منذ ثلاثينيات هذا القرن - إلى دراسة، نصوص النقد العربى القديم، برؤية ذات طابع ثنائى «تاريخى - فنى»، غايتها إضاءة النصوص بمنهج معتدل أحياناً ومقتحم غالباً. وقد تأسس «الاعتدال» على تجنب تحميل النصوص غير ما تحتوى عليه أو عدم «إقحام ما لم يخطر بعقول المؤلفين القدماء من نظريات وآراء» (١)، ويؤكد ذلك قول أحد الدراسين بأنه ينبغى على أن أترك النقد القدامى يتحدثون بلغتهم، فلا أترجم ما قالوه إلى لغة نقدية معاصرة، إلا فى حالات قليلة جداً، حين تستغلق العبارة على القارئ المعاصر، كما هى الحال فى نقد حازم القرطاجنى (٢)، وربما ظهرت هذه النظرة بمظهر سلبي، لا نحياها إلى النصوص وتغليب الإشادة بعبقريّة أصحابها.

* أستاذ النقد الأدبى . بكلية البنات . جامعة عين شمس.

(١) د. محمد منور. النقد المنهجي عند العرب، نهضة مصر. ط (٢) ١٩٧٢ ص ٦.

(٢) د. إحسان عباس. تاريخ النقد الأدبى عند العرب. نقد الشعر من القرن الثانى حتى القرن الثامن الهجرى. دار الشروق، عمان - الأردن - طبعة ١٩٩٣ ص ١٢.

تسرب بعض هذه المفردات إلى عدد من المؤلفات العربية التي عرضت لنصوص التراث النقدي، إذ استغل أصحابها هذه المفردات لإضاعة النصوص موضع النظر، لا سيما أن غيرنص منها قد احتوى على بعضها. كطبقات فحول الشعراء لابن سلام الذى قسم الشعراء إلى طبقات على أساس زمنى ومكانى، وعنى بـ «توثيق الشعر» و«صحة نسبته إلى قائله» (٢). وكتاب الحيوان للجاحظ الذى تناول تأثير البيئة والموهبة والجنس فى الشعر (٤). وكتاب الوساطة للجرجاني، الذى ألمح إلى تأثر الشعر وقائله بالبيئة (٥).

ويؤكد قيمة هذه الإفادة بعض الباحثين المعاصرين حين رأوا ضرورة الاستفادة من تجارب الغير، ومن التقدم المنهجى الكبير الذى أحرزه الباحثون الأوروبيون فى مجال الأدب واللغة (٦) وإن أبدوا حذرهم من التوسع فى فرض مذاهب الآداب الغربية على النصين الإبداعى والنقدي (٧). وهى

ويعنى «الاقتحام» بأن الباحث يتخذ أسلوب «حوار التراث» الذى يخلل الإشادة الغالبة، لأنها تخلو من التقويم الموضوعى للنص، ولأنها ليست سوى «تجاهل للحقائق الأدبية والنقدية فى أدبنا المعاصر نفسه فضلاً عن الآداب العالمية، كما أن وقوف الباحث عند حدود الشرح والإحصاء لهذه الآراء - يفقده الأصالة فيعيش بأرائه فى غير عصره عن قصور أو ضيق أفق» (١).

وقد أفاد البحث النقدي «المعتدل» و«المقتحم» من معالم هذا الاتجاه ومفرداته التى ترددت فى المؤلفات الأوروبية الحديثة، مثل «البحث عن الوثائق أو الهورسطيقا» Heuristik، و«نقد المصدر»، و«نقد التفسير الهرمنوطيقا» ونقد النص - Textk- ritik، و«الترتيب النقدي للمراجع» الذى يتنوع إلى «تصفح» recensio، وإصلاح emendato وفحص النص - exami- natio (٢).

وتمثلت الإفادة من هذا الاتجاه فى

- (١) د. محمد غنيمى هلال: دراسات ونماذج فى مذاهب الشعر ونقده، نهضة مصر د. ت ص ٩
- (٢) لانجلوا وسينوئوس، ويول ماس، وإما نويل كانت: النقد التاريخى ترجمة د. عبد الرحمن بنوى - دار النهضة العربية طبعة (١) ١٩٧٠م صفحات ٣٣، ٨٥، ٩٥، ١٢٥، ٢٥٨، ٢٦٥.
- (٣) طبقات فحول الشعراء. تحقيق: محمود شاكر. المبنى - القاهرة ١٩٧٤ ص ٧ وما بعدها.
- (٤) الحيوان. تحقيق: عبد السلام هارون. الطبى مصر - ١٩٣٨ - ٤ / ٣٨.
- (٥) الوساطة: تحقيق أبو الفضل، والبجارى، العصرية، بيروت ط ١٩٦٩، ص ١٨.
- (٦) النقد المنهجى ص ٦.
- (٧) أحمد الشايب - تمهيد ص ١، بتاريخ ١٩٣٧ - الذى مهد لكتاب طه أحمد إبراهيم تاريخ النقد الأدبى عند العرب من العصر الجاهلى إلى القرن الرابع الهجرى ط (١) ١٩٣٧

المذاهب التي لم تخطر على عقول نقادنا القدامى - كما أشرنا منذ قليل .

والواقع أن الباحث محق في هذا الحذر تجاه الأفكار المطروحة عليه، خاصة إذا نظر إليها بمعيار عملي نفعي من زوايا اعتقاده بأنه «لا قيمة لفكرة تستفاد من ثقافة أخرى إلا بقدر ما تلبى حاجة أو تحل مشكلاً، أو تضيء سبيلاً» (١).

لكنهم نبهوا رغم هذا التحذير إلى عدم الاقتصر على ما كتبه الأقدمون من نقاد الأدب العربي أمثال قدامة والامدى والجرجاني وابن رشيق وغيرهم ممن غلبت على مذاهبهم الأفكار الجزئية والمباحث الموجزة الضيقة والنظرات السريعة، لأن الفن الأدبي يحمل طاقات عاطفية وشعورية تعكس مزاج صاحبه، وإمكانيات بيئية ذات دلالات مختلفة .

وفي ضوء هذا كان من الضروري التفكير في تحرير الدرس النقدي من الدائرة الشكلية الجزئية وتنظيمه وإقامته على أسس سليمة، وذلك بالاتجاه إلى دراسته بشائية «تاريخية فنية» تعنى بأنواره وأصول أحكامه اللفظية والمعنوية وعوامل الابقاء على هذه الأصول أو

تغييرها، والمؤثرات التي تدخلت في صياغة أحكامه حقاً أو باطلاً، ومظاهر الحضارة العربية والأجنبية التي كان لها سلطان على فن النقد الأدبي (٢).

فكل من الجانب التاريخي والجانب الفني اعتمده عدد من الباحثين المعاصرين من حيث أنهم يمثلان فن النقد الأدبي الخاص بهذا الاتجاه، على نحو ما نرى ذلك في مؤلفاتهم التي شقت لها اتجاهاً متميزاً - وسط المؤلفات النقدية الأخرى - يتمتع بالأصالة لاتسامه بالتطور الطبيعي؛ فقد بدأ بدراسات تتصف بروح حذرة مترددة، ثم ما لبث أن قوى وتمكن بدراسات أخرى جنحت إلى التحاور مع التراث تحاوراً قام على الفحص والتحليل الفني. وهذه المؤلفات منها ما هو كتب موسعة ومنها ما هو بحوث مركزة.

فمن الكتب: تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري لطف إبراهيم ١٩٣٣، والنقد المنهجي عند العرب للدكتور محمد مندور ١٩٤٣، ودراسات في نقد الأدب العربي من الجاهلية إلى غاية القرن الثالث للدكتور بدوي طبانة (١٩٥٣) . وأسس النقد الأدبي

(١) د. سعد مصلوح: شكل العلاقة بين البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية. ضمن المجلد (٢): قراءة جديدة لتراثنا النقدي - نادي جدة - السعودية ط (١) ١٩٨٨ ص ٨٢١ .

(٢) أحمد الشايب . مقدمة كتاب تاريخ النقد الأدبي عند العرب لطف إبراهيم صفحات ح ، هـ ، و .

(٢)

ولئن اتسمت هذه الكتب والبحوث بفروق في الرؤى البحثية وتمايز في تناول واختلاف في التوجّه والنهج - فإنها تشترك جميعاً في «التاريخية الفنية» وفي الاعتماد- الغالب- على مفردات هذه الثانية، مما استدعى جمع معطياتها وتصنيفها والتقريب بين المتشابه والمتوافق منها وحصره ما أمكن في سبعة محاور هي: «نقد المصدر»، و«تحقيق النصوص ونسبتها»، و«الإحاطة التبعية»، و«تاريخية التناول»، و«التسرب الثقافي»، و«التحول أو العدول» و«التحليل النوعي».

أما المحور الأول وهو «نقد المصدر» فيعني أن عدداً من باحثي هذا الاتجاه قد دعوا عند دراسة التراث النقدي إلى اتخاذ الكتب أو النصوص القديمة، التي تدرس ظاهرة معينة بغية الاعتماد على بعضها أثناء دراسة هذه المسألة على نحو ما بين ذلك د. محمد مندور وهو يتابع بالتحليل موازنة الأمدي التي تشبه الموازنة المعاصرة (١) وثانيها «البحث في المصادر المختلفة» لصاحب النص النقدي موضوع

عند العرب للدكتور أحمد أحمد بدوي (١٩٥٨)، وتاريخ النقد الأدبي عند العرب: نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن للدكتور إحسان عباس (١٩٧١)، واتجاهات النقد الأدبي في القرن الرابع للهجرة للدكتور أحمد مطلوب (١٩٧٣)، ونقد الشعر في القرن الرابع الهجري للدكتور قاسم مومني (١٩٨٢)، وقيم الإبداع الشعري في النقد العربي القديم (١٩٨٩)، ومقاييس الحكم الموجز في الموروث النقدي (١٩٩١) للدكتور حسن البنداري وغير ذلك من الكتب.

ومن البحوث المركزة: جناية عمود الشعر على الشعر العربي (ضمن كتاب: دراسات ونماذج في مذاهب الشعر ونقده. للدكتور محمد غنيمي هلال (١٩٦٩)، والنقد العربي القديم والمنهجية للدكتور عبد القادر القط: بمجلة فصول (١٩٨١)، ونظرة في كتاب المثل السائر للدكتور محمد الهادي الطرابلسي بقراءة جديدة لتراثنا النقدي (المجلد الأول) (١٩٨٨). وتنويع الحكم النقدي بالوصف والتصوير للدكتور حسن البنداري بدراسات عربية وإسلامية (١٩٩٣). وغير ذلك من البحوث.

(١) النقد المنهجي عند العرب ص ١٥ .

التي تعرضت لأم جندب وامرئ القيس وعلقمة الفحل، لارتكازها على حكم ذى مقياس نقدي، وكيف خامره الشك فى صحتها(٦) . وسادسها : يختص ببحث أصول الكتاب النقدي، ككتاب الموازنة، الذى يرجع إلى مؤلفات القرن الثالث الهجرى(٧).

ويستند باحثوا المحور الثانى «تحقيق النصوص ونسبتها» إلى أربعة أفكار متنوعة.

الأولى: فكرة فحص الشعر «الموضوع» أو «المنحول» على النحو الذى نهض به: طه إبراهيم، ومحمد مندور، ويدوى طبانة، وطاهر درويش، وحسن البندارى وسواهم - حيث اتفق هؤلاء على أن ابن سلام طبق الروح العلمية «بإسناد كل قول إلى صاحبه، وكل شعر إلى عصره»(٨). واستعمل أدلة عقلية ولغوية ونقلية وفنية. تتعلق بحداثة العربية الفصحى، واستبعاد أى قصيدة

الدراسة بأن نلتمس مثلاً المصادر المتنوعة للأحكام النقدية التى استند إليها الأمدى وهو يفحص شيوع ظاهرة البديع فى شعر أبى تمام(١). أو المصادر التى اعتمد عليها حازم القرطاجنى وهو يتناول العلاقة بين الشاعر والمتلقى(٢) ثالثها: «دراسة الملاحظات النقدية السابقة، التى وجهت إلى شاعر معين وذلك لتكوين رؤية منصفة غير بعيدة عن النظر النقدي الحديث(٣). ورابعها: «دراسة الشروح التى تناولت شعر الشاعر لمعرفة أثرها وتأثيرها على نحو ما تم بالنسبة لشروح ابن جنى لشعر المتنبي. وطرق الكتب التى عرضت لتلك الشروح(٤) . وخامسها: «دراسة الروايات المتفاوتة باعتبارها مصدراً للنص النقدي كما صنع حسن البندارى عندما درس روايتي الحكم النقدي لطرفة بن العبد على بعض شعر المسيب بن علس، أو عمرو بن كلثوم(٥)، وطه إبراهيم حين فحص مدى صحة «الرواية»

(١) السابق صفحات ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٣٩ .

(٢) د . حسن البندارى: حولية كلية البنات جامعة عين شمس عدد ١٦ / ١٩٩٠ .

(٣) السابق ص ١٩٠ ، ص ٢١٠ .

(٤) السابق ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

(٥) مقياس الحكم الموجز فى الموروث النقدي، الأنجلو المصرية ط(١) ١٩٩١ ص ٧ ، ٨ .

(٦) تاريخ النقد الأدبى عند العرب من العصر الجاهلى إلى القرن الرابع الهجرى ط (١) ١٩٣٧ ص - ٢٠ ، ٢٢ .

(٧) السابق ص ١٧٦ .

(٨) السابق ص ٧٦ . وحسن البندارى: قيم الإبداع الشعرى فى النقد العربى القديم الأنجلو المصرية ط(١) ١٩٨٩ ص ٨١ .

فيها على وجه الحقيقة والتأكد من صحة نطقها(٥).

وأما الفكرة الرابعة فإنها تتحصل بضرورة التأكد من أن الكلمة في النص أو العبارة - لم يدخلها تصحيف ولا تحريف(٦).

وأما المحور الثالث وهو «الإحاطة التتبعية» فيتجلى في «الوعى الشامل بمذاهب الشعر وفنونه»؛ فالأمدى في الموازنة لا يكتفى «بالخوض في أشعار أبى تمام والبحترى، ولكنه يتعرض لكثير من شؤون الشعر العربى القديم والمحدث خاصة، وكذلك كتاب الوساطة؛ فهو يتصدى للبحث في شعر المتنبى، ويعرض في الاستشهاد أو التدليل أو التماس العذر إلى كثير من الشعراء»(٧). كما تتجلى في الوعى بعلم اللغة لتوضيح أحكام النقد وتعليلها، وبالأحداث التاريخية المواكبة للفن الشعرى وتقاليد لدى الشعراء، وبمتابعة من تناولوا الشاعر على مر السنين؛ فأبو هلال العسكى يدير حواراً مع المتنبى مفسحاً

تعزى إلى عهد أقدم من عهد المقصدين للقصيدة وهم امرؤ القيس ومهلل وطرفة، ويأث - ابن سلام - توصل إلى أسباب ظهور هذه المشكلة المنحصرة في «العصبية النوعية»، وهألوان الرواة»(١). كما بين الباحثون الأربعة الأول، وفي «عملية التكوين» عند الباحث الأخير(٢)، وبأن صنيع ابن سلام في «تحقيق النصوص» و «وصحة نسبتها» إجراء أساسى في العملية النقدية تيسره «الدرية» على قراءة النصوص والتمرس بها(٣).

والفكرة الثانية هي «فكرة فحص النسخ القديمة» الأخرى غير المعروفة، فيها يتمكن الدارس من «تحقيق النص قبل الحكم عليه». كما فعل الأمدى حين اطلع على النسخ العتيقة التى جهلها الصولى. وهذا الاطلاع يمثل «أولى مراحل النقد المنهجى المستقيم»(٤).

والثالثة تتعلق بحاجة الدارس إلى «المعرفة الواسعة» بأسماء الأماكن، وأسماء الأشجار والنبات والمواضع والمياه التى ترد في الشعر حتى يستطيع معرفة الصواب

(١) السابق ص ٨٠ والنقد المنهجى ص ١٩ .

(٢) فى النقد الأدبى عند العرب - دار المعارف بمصر ط (١) ص ١٤٤ .

(٣) النقد المنهجى ص ١٩ . (٤) السابق ص ١٠٤ .

(٥) د . أحمد بدوى : أسس النقد الأدبى عند العرب . نهضة مصر ص (٢) ١٩٦٠ ص ٢٩١ .

(٦) السابق ص ٢٩١ .

(٧) طه إبراهيم: تاريخ النقد الأدبى عند العرب ص ١٥١ ، ١٥٢ .

علم البيان وعلم النقد الأدبي. فعلم البيان يرجع إلى أصل واحد، لأنه عربي محض، بينما يرجع علم النقد الأدبي إلى جملة أصول فنية ترجع إلى المزاج العربي، وأمزجة أخرى ليست بعربية. وعلم النقد نما وترعرع في كنف الشعراء والرواة والمتأدبين بينما ترعرع ونما علم البيان في كنف المتكلمين، ومن هم إلى الفكر والعلم أقرب، وعلم النقد ظهر في الشعر... على حين ظهر علم البيان في النثر» (٣).

والزاوية الثانية تتصل بتطور كلمات أو صيغ بعينها كصيغ «نقد» و «أدب» و «شعر» و «نثر» و «موهبة» و «تكسب»، وغير ذلك من الصيغ التي حظيت بنظرات أجيال النقاد واللغويين. (٤). والثالثة : دراسة القضية النقدية «كعمود الشعر»، وكيف أنها أضرت بالشعر العربي أو لم تضربه عبر مسيرته (٥)، وقضية «اللفظ والمعنى». وتتضمن هذه الزاوية تاريخية تناول معنى نص شعري بشكل متباين (٦)، مثل نص

المجال لغيره بغرض استمرار هذا الحوار الذي تولته في العصر الحديث دراسات زكي مبارك التي أودعها كتابه «النثر الفني». كما تتضح هذه الإحاطة في ملاحظة القضية أو الظاهرة المعينة الواحدة في بلدان عديدة. مثل قضية «الخصومة» - التي ثارت في جرجان على يد علي بن عبد العزيز الجرجاني، وفي فارس بنظرات ابن العميد، وفي بغداد بمناقشات ابن جني.. وظاهرة «التوجه البديعي» في الشعر التي درسها الجاحظ وابن المعتز فاستقرت اصطلاحيا في كتاب البديع (١)، وتنامت في غير كتاب مثل بديع القرآن لابن أبي الإصبع المصري. وظاهرة «الأخذ الفني أو السرقات». التي أخذت حيزا واسعا في التراث النقدي (٢)

ويتمثل المحور الرابع «تاريخية التناول النوعي» في فحص الباحثين المعاصرين للتراث النقدي من عدة زوايا؛ الأولى: «النشأة والمرجعية» ففيها جاء تفريقهم بين

(١) د . بوى طبانه دراسات في نقد الأدب ص ٢٤٨ .

(٢) د . حسن البنداري: قيم الإبداع الشعري في النقد العربي القديم ١٢٧، وما بعدها ، والصنعة الفنية في التراث النقدي مركز الحضارة العربية ، ط (١) ص ١٢٧، وما بعدها .

(٣) طه إبراهيم : المرجع السابق ص ٦

(٤) د . أحمد بوى أسس النقد ص ١ - ٩ .

(٥) د . غنيمي هلال : دراسات ونماذج في مذاهب الشعر ونقده ص ٩ ، ود . حسن البنداري عمود الشعريين والثبات والتحول ط (١) الأنجلو المصرية ص ٧، وما بعدها .

(٦) د . حسن البنداري تكوين الخطاب النقدي في النقد العربي القديم ط (١) الأنجلو المصرية ١٩٩٣ ص ١٠٨ .

يتألف من ثلاثة أبيات اشتهرت في تاريخ

النقد العربي وهي :

ولما قضينا من منى كل حاجة

ومسح بالأركان من هو ماسح

وشدت على دهم المهارى رحالنا

ولم ينظر الغادى الذى هو رائح

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا

وسالت بأعناق المطى الأباطح(١)

فعلى حين قرر كل من ابن قتيبة، وقدامة

ابن جعفر، وأبى هلال العسكري «توهين

معناها» لتفاهتها رغم تسليمهم بفصاحة

ألفاظها وإحكام صنعتها - نجد من تصدى

للدفاع عنها مثل ابن جنى وعبد القاهر حيث

أشادا بألفاظها ومعناها(٢).

وتكمن الزواية الرابعة فى الوقوف على

تطور قضية «الصراع بين القديم والحديث»

وتأصيلها على نحو ما عمد إلى ذلك عدد من

الباحثين(٣).

ويبدو المحور الخامس وهو التسرب -

«والإسقاطا الثقافى» فى كونه عنصراً

أساسياً لتشكيل الرؤية النقدية لفاحص

العمل الأدبى، على اعتبار أنه مكتسبات

معرفية سابقة عليه أو مصاحبة له، سواء

أكانت مباشرة أم غير مباشرة. وقد تمثل

ذلك فى دراسة أفكار نقدية مثل «الخصومة

بين القدماء والمحدثين» التى استعين فى

تجليتها بمبدأين نقديين تردداً فى البيئات

النقدية العربية وهما «ذاتية النقد» من حيث

قيامه على الشعور والنوق، مما جعله ذلك

يختلف باختلاف الأنواق. و«وفنية النقد» من

جهة خوضه فى عناصر الأدب بالتحليل

والتعليل(٤).

وفى هذا المجرى بحث المعاصرون

«التأثير الأجنبى» فى النقد القديم، «وتأثره»

بالإطار الثقافى المحيط به؛ فوجدوا أن

(١) كثير بن عبد الرحمن ، ديوانه ١ / ٧٩ وقد نسبت إلى كل من : يزيد بن الطثيرة وعقبة بن كعب بن زهير.

(٢) تاريخ النقد الأدبى عن العرب ٢٢٣ ، ٣٢٥ .

(٣) مثل طه إبراهيم فى تاريخ النقد ص ٨٩، ومحمد مندور فى النقد المنهجى ص ١٦٣ ، ١٨٦ ، ٢٤٩ ،

وأحمد بنبوى فى أسس النقد الأدبى عند العرب ص () واحسان عباس فى : تاريخ النقد .. نقد

الشعر ص ١٤٧ ، ٢٥٢ ، ٣١٢ .

(٤) طه إبراهيم ، تاريخ النقد ص ٨٩ .

يحذرون من فرض مناهج حداثة على القضية النقدية ذات الطابع التراثي (٢) ولا سيما المناهج التي ولّتها دراسة آداب مفايرة بطبيعتها التاريخية لأدبنا العربي (٣). وهذا التحذير صائب وصحيح، ويرجع ذلك إلى «خصوصية» المرحلة التي أفرزت هذه القضية أو تلك . فهي مرحلة محكومة بظروف تاريخية وفكرية تختص بها وتفرض اللغة النقدية التي تتناولها.

يكشف المحور السادس «التحول النوعي» عن دراسة المعاصرين لآلوان من التحول التي مارسها النقاد القدامى.

فثمة «تحول نوعي» خاص بالأحكام النقدية التي بدأت بنوق ساذج غير معطل في بعض نماذج نقد العصر الجاهلي، ثم نضجت بنضوج النوق وثقافته في نماذج من العصور التالية لذلك العصر.

وقد لاحظ المعاصرون ذلك في ضوء دراستهم لأحكام نقدية لعدد من الشعراء والعلماء بالشعر (٤)، وفي ضوء تجربة ابن

القمامي رحبوا بهذا التأثير وإن أثروه - كما ندعو اليوم - متسماً بالاعتزان. ومن ثم نادوا بالاعتدال في الجمع بين القديم والحديث، كما وجدوا أن تأثر الناقد بالإطار الثقافي المحيط به مظهر لإمكان الاستعانة بإنجازات كل من علماء الدين، وعلماء العربية، ورجال الترجمة. وبعبارة أخرى: الاستعانة بفكرة «علمية الفترة الزمنية وفكرها» (١). التي أثرت بدورها في حركة النقد الأدبي الذي أصبح يعتمد على مصادر ثقافية متنوعة تتمثل في الذهنات المتعاقبة للغويين والأدباء والعلماء المثقفين بثقافة أجنبية، والعلماء المتأثرين كل التأثر بالثقافة اليونانية.

وعلى الرغم مما تتضمنه دراسات المعاصرين لصنيع القمامي من «موافقة» على الاستعانة بالرؤى الأجنبية في دراسة الأدب، ومن ترحيب بأهمية المصادر الثقافية المتنوعة بالنسبة للنقد ونقد النقد معاً - لكن بعض المعاصرين يحذرون من المغالاة في «اسقاط» الثقافة النقدية الحديثة والحداثة على دراسة النص النقدي القديم، كما

(١) السابق ١٢٢ - ١١٤ .

(٢) د . عبد القادر القط. (النقد العربي القديم والمنهجية) فصول ع أبريل ٨١ ص ١٣ .

(٣) د . محمد منور: النقد المنهجي ص ١٢٨ ، ص ١٣٢ .

(٤) د . حسن البنداري: مقاييس الحكم الموجز. في الموروث النقدي ص ٧ وما بعدها.

النصوص الأدبية في العصر الجاهلي من الجزئية إلى الكلية منذ نهوض النقد القدامى بمهمة التأليف المنهجى الذى عرفناه عند ابن سلام، والأمدي، والجرجاني، وعبد القاهر وغيرهم.

ويتضح المحور السابع «التحليل الفنى المتنوع» بدراسة المعاصرين لتحليلات عديدة مارسها النقاد العرب القدامى حين تصديهم لظواهر وقضايا أدبية مختلفة. فمثلاً عمد المعاصرون إلى «تحليل سمات نقد القرن الرابع الهجرى» فى ضوء عمل الأمدي فى كتاب الموازنة، والجرجاني فى كتاب الوساطة. وأوصلهم التحليل إلى الوعى بطبيعة العمل النقدي لدى الاثنين؛ إذ يتألف من عناصر صحيحة وسليمة تتجلى فى «النوق المثقف»، و «الإحاطة» بمذاهب الشعر وفنونه، و «دقة التعليق»، وغير ذلك، ليثبت التحليل - من ثم - «سيادة الروح العلمية وسريانها فى النقد الأدبى» (٥).

سلام، الذى قاس فيها نجاح الناقد بمدى تحصيله المعرفى ومدارسته النصوص وتدريبه عليها (١)، واعتماده على القواعد والقوانين العلمية على النحو الذى جرى فى العصر العباسى (٢).

وثمة تحول فكرى نراه فى تطور مفهوم الفكر الذى يعتبر النقد أحد مظاهره؛ فقد درس المعاصرون: تطور نقد العصر العباسى من حيث انقسامه إلى «معسكرين» أو حزبين هما : حزب الأحرار المقابل للمحدثين، وحزب المحافظين المساوى للقدماء، اعتماداً على نصوص ابن قتيبة التى حددتهما، وبينت الدور المؤثر لكل منهما (٣).

على حين وقف بعض المعاصرين بالدراسة على نوع ثالث من التحول يسمى «التحول من الجزئى إلى الكلى» (٤)؛ فقد انتقلت الأحكام النقدية الصادرة على

(١) النقد المنهجى ص ١٦٣ .

(٢) أحمد أمين: النقد الأدبى . نهضة مصر ط . (٤) ص ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، أحمد بدوى: أسس النقد الأدبى عند العرب ص ٨٧ .

(٣) أحمد أمين : النقد الأدبى ص ٤٤٠ .

(٤) د . بدوى طبانة : دراسات فى نقد الأدب العربى : ص ١٢٩ وما بعدها .

(٥) طه إبراهيم : مرجع السابق ١٥١ - ١٦٦ . ود . حسن البندارى . قيم الإبداع الشعرى فى النقد العربى القديم ص ٨١ ، ما بعدها

ما لا يدخل فى صميم الفن أو الإبداع، ولا صلة لها بشعر أبى تمام مثل «كفره» و «التخبط فى فهم شعره»، و «الادعاء الكاذب» من بعض شراحه ونقاده السابقين - كالصولى - بأنهم أكثر قدرة على فهم شعر أبى تمام، لا سيما أن الأمدى توصل بالتحليل إلى ضعف هذا الفهم وتهاويه. لتبقى فى النهاية العناصر الحقيقة ذات الصلة بالعملية الفنية(٣).

ويتضح «الإنصاف» الموضوعى لدى المعاصرين فى اعترافهم بتقدم النقد الأدبى على يد ابن قتيبة، لأنه «أخذ فى نقده بالروح العلمية فى الأحكام» إذ حكم نظره الشخصى، واستند إلى رأيه المستقل عن سواه، وقدر الأشياء فى ذاتها(٤)، كما ظهر إنصافهم فى ملاحظتهم أن دراسة الأمدى لأخطاء أبى تمام تمت «بروح علمية صادقة»(٥) مجافية للتجوز والانفعال

وقد نبه المعاصرون كذلك إلى ما اتصفت به دراسات النقد القدامى من صفات عديدة - أيضاً - مثل : المقارنة الصحيحة، والشمولية، والتصفية، والإنصاف الموضوعى.

وتبدو «المقارنة» فى دراسة الظاهرة الأدبية اعتماداً على عناصر فنية بالعملين موضع المقارنة مثل وضع الخطأ، وتحديد خصائص العملين، والاقتصاد فى الحكم النزيه، كما نرى فى مقارنة شعر أبى تمام بشعر البحترى(١) ..

ونقف على «شمولية» الرؤية فى تحديد الأمدى لأخطاء أبى تمام؛ حيث استند فى تحليله إلى «الرواية» و «الفطنة النفسية»، و «الخبرة بالأشياء» ، و «المعرفة النحوية»(٢).

وتظهر «التصفية» التى لاحظها المعاصرون على نقد الأمدى فى استبعاده

(١) النقد المنهجي ص ١٤٩ .

(٢) السابق من ١٢٤ - ١٢٧ .

(٣) السابق ص ٨٣

(٤) السابق ص ٢٨ .

(٥) السابق من ١١٥ ، ١١٦ .

شأنه أن يوجد فيه» (٤). وهذا التحذير يمثل دعوة صحيحة تدعونا إلى بذل المزيد من الفحص والدرس، بفرض الكشف عن إمكانات النص التراثي وطاقاته النقدية، بدلاً من اتهامه بالقصور، أو النقص، أو الجزئية.

ويكفى أن الناقد القديم. قد وقف عند أفكار نقدية تناولت أحكام البناء الشعري (٥) كفكرة ترابط الأبيات في القصيدة على النحو الذي تناوله كل من ابن طباطبا، وابن رشيق، وعبد القاهر الجرجاني وغيرهم.

ولكن رأى بعض المعاصرين أن تحليلات النقد العربي القديم تتصف «بالقصور النوعي»؛ إذ بينوا أن ثمة قصوراً يتعلق «بالموازنة» التي طبقها أبو تمام على أساس «الشك» في بعض الروايات الخاصة بها (١)، وأن التحليل لدى القدامى جزئي، فلم نعرف عنهم أنهم حللوا نصاً أدبياً كاملاً (٢)، وأن نظرية النظم كما درسها عبد القاهر قاصرة لأنها مقيدة بالعبارة المحدودة، فلم يدرس النص الأدبي الكامل الذي يحفل بعناصر الخيال والإيقاع والتماثل والنقاء الخ (٣).

والحق أن الملاحظتين الأخيرتين تتطويان على دعوة تطبيق المنهج النقدي الحديث بمفرداته على نص نقدي قديم. وهذه الدعوة تواجه بتحذير في نفس الموضع من نفس الدارس المعاصر بآلا نفرض «المناهج الحديثة على نقدهم - أي القدماء - فلا نطلب من التراث النقدي «ما لم يكن من

(١) طه إبراهيم : تاريخ النقد من ١٧٩٠ .

(٢) د . عبد القادر القط : فصول ع أبريل ٨١ ص ١٤ ، ٢٠ ، ٢٢ .

(٣) السابق ص ٢١ .

(٤) السابق ص ٣٠ .

(٥) د . حسن البنداري : تنويع الفن الشعري في الموروث النقدي والبلاغي . ط (١) الأنجلو المصرية

١٩٨٩ م